القسم الثالث

موقف المتكلمين

- (أولاً) موقف المتكلمين العـــام ومظاهر الخلاف ·
- (ثانيًا) الرد على القائلين بقـــــدم العالم وإنكار وجود الله تعالى ·
- (ثالثًا) الرد على المنكرين لوحـــــدانية الله تعالى والقائلين بالتجسيم والتشبيه ·
- (رابعًا) الرد على المنكرين للثبوت ·
- (خامسًا) الرد على القائلين بإنكار المعاد والقائلين بالتناسخ ·

obeikandl.com

obeikandl.com

(أولاً) موقف المتكلمين العام ومظاهر الخلاف العام

قبل أن نعرض لودود المتكلمين على آراء أصحاب الديانات الشرقية القديمة وبعض الفرق المنتسبة للإسلام التى ذاعت بينها هذه الأفكار ، نشير إلى الموقف العام للمتكلمين اتجاه هذا الفكر ، ثم مظاهر الخلاف بين هذا الفكر وبين العقيدة الإسلامية التى دافع عنها المتكلمون .

لقد قاوم المفكرون الإسلاميون على اختلاف نزعاتهم الفكر الدينى الشرقى القديم ، ولقد كان للمتكلمين النصيب الأوفر فى ذلك ، بل لقد كانت تلك مهمتهم الأولى ، وقد أعدوا لها خير إعداد .

ويدل على ذلك أننا إذا تأملنا تعريفات علم الكلام ذاته وعوامل نشأته ، نجد أنه قد قام من أجل الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد المنكرين لها ومن بينهم أصحاب الديانات الشرقية القديمة ، فعلى سبيل المثال يعرف الفارابى علم الكلام « بأنه ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحمودة التى صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها[1]، وأيضا يعرفه الآيجى فى المواقف بأنه « علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير وإلزامه إياها بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها[2] .

ومن هذا يتضح لنا أن مهمة علم الكلام توضيح أصول الدين وإثباتها عن طريق العقل ، والرد على الخصوم المنكرين لتلك العقيدة باستخدام نفس سلاحهم وهو الأدلة العقلية والمراد بالخصوم هم أصحاب العقائد الأخرى المخالفة للإسلام أو المنكرين للعقائد أصلا ، وهؤلاء هم أصحاب الفكر الشرقى القديم ، الذين التقى بهم المسلمون فى البلاد التى فتحوها .

---

(١) الفارابى : إحصاء العلوم ص١٣١ .

(٢) الآيجى : المواقف ص١١ وأنظر : كتابنا الفرق الكلامية الإسلامية ص٩١ - ١٣ ، وأيضا العوامل الخارجية لنشأة علم الكلام ص٦١ - ٧٥ .

ولقد تسلح المتكلمون بسلاح العقل فى ردودهم على خصومهم وإذا تأملنا تلك التعريفات السابقة لعلم الكلام ، نجد أنها تستخدم صيغة الاقتدار ، أى يجب أن يكون لدى المتكلم القدرة التامة والعلم بجميع العقائد ، وما يتوقف عليه إثباتها من الأدلة ورد الشبه ، وكذلك العلم بطرق الأدلة لعقلية ، وأيضا العلم بالعقائد المخالفة والرد عليها وإثبات بطلانها .

ولقد كان المتكلمون أكثر قدرة من غيرهم من المفكرين الإسلاميين على مقاومة الفكر الدينى الشرقى ، ويوضح ذلك ما ذكره ابن المرتضى من أنه عندما منع الرشيد الجدال فى الدين وحبس أهل علم الكلام ، كتب إليه ملك السند أن يرسل إليه من يناظر رجال الدين عنده ، « فإن كان الحق مع من أرسلته اتبعتك وإن كان مع رجالى اتبعتنى » ، فأرسل إليه الرشيد قاضيا محدثا وفقيها ، فسأله أحد السمنية الذى دفع الملك إلى هذا ، وقال هل يقدر الله على أن يخلق مثله ، فأجاب القاضى هذه مسألة من مسائل علم الكلام وهو بدعة وأصحابنا ينكرونه ، فقال السمنى للملك قد كنت أعلمتك دينهم وأخبرتك بجهلهم وتقليدهم وغلبتهم بالسيف ، فأمر الملك لقاضى بالانصراف ، وكتب معه كتابا للرشيد قال فيه ، أنى كنت قد بدأتك بالكتاب وأنا على غير يقين مما حكى لى عنكم ، فالآن قد تيقنت ذلك بحضور القاضى ، ولما ورد الكتاب على الرشيد قامت قيامته وضاق صدره ، وقال أليس لهذا الدين من يناضل عنه ، قالوا بلى يا أمير المؤمنين هم الذين نهيتهم عن الجدال فى الدين وجماعة منهم فى الحبس ، فقال أحضروهم فلما حضروا قال ما تقولون فى هذه المسألة ، فقال صبى منهم ، هذا السؤال محال لأن المخلوق لا يكون إلا محدثا والمحدث لا يكون مثل القديم ، فقد استحال أن يقال يقدر على أن يخلق مثله أو لا يقدر ، فقال الرشيد وجهوا هذا الصبى إلى السند ليناظرهم[1] .

ونجد كتب المتكلمين من سائر الفرق زاخرة بالردود على أراء أصحاب الديانات الشرقية ، فالمعتزلة على سبيل المثال وهم أول فرقة كلامية قد أبلوا فى ذلك بلاء حسنا ، فلقد ذكر ابن المرتضى فى ترجمة طبقات المعتزلة ، معرفتهم لآراء الزنادقة والدهرية والثنوية وغيرهم من أصحاب الديانات الشرقية القديمة ، وردودهم عليهم ومناقشاتهم لهم ومناظراتهم ومجادلاتهم .

---

(١) ابن المرتضى : المنية والأمل ص٣٢ ٣٣ ولقد روى هذه الحادثة بأكثر من رواية .

ففى ترجمة واصل بن عطاء يذكر أنه كان أعلم الناس بأقوال الزنادقة والثنوية وسائر المخالفين ، وأنه رد عليهم ، وأنه قد أرسل أصحابه يجوبون الآفاق لمناظرة المخالفين فأرسلهم إلى المغرب وخراسان وأرمينية وإلى سائر البلاد التى فتحها المسلمون ، ليناقشوا المخالفين ، وأورد ابن المرتضى لواصل بن عطاء كتبا فى الرد على الثنوية[1] .

أيضا فى ترجمة العلاف ذكر أن له مناظرات طويلة مع المجوس والثنوية ، وأنه كان يقطع الخصم بأكل كلام، ويقال إنه أسلم على يده زيادة على ثلاثة آلاف رجل .

ولقد ناظر العلاف صالح بن عبد القدوس،وكان صالح من الثنوية وقال فى العالم بأنه من أصلين قديمين نور وظلمة،كانا متباينين فامتزجا،فقال له العلاف فامتزاجهما أهو هما أم غيرهما ، قال بل أقول هو هما،فألزمه العلاف أن يكونا ممتزجين متباينين إذا لم يكن هناك معنى غيرهما ولم يرجع ذلك إلا إليهما ، فانقطع صالح[2] .

ولقد ذكر أيضا مناقشة جعفر بن حرب لأحد الثنوية ، فقال على لسان جعفر « فأنا أسالك عن المسألة عنها أبو الهذيل حتى تجيبنى فقال لى قبل كل شىء ينبغى للعاقل أن يتصف فى القول كما يجب عليه أن يحسن فى الفعل فقلت له صدقت ، فخبرتى من وعظك بهذه الموعظة النور فهو مستغنى عنها ، لأنه لا خير فى العالم الا منه ولا يكون منه الشر البتة ، أم الظلمة فلا يكون منها الخير أبدا وهى مطبوعة على الشر ، فلا معنى لهذا الوعظ .

ثم قال لى أنت غافل عما عليك فى هذا الباب ، أن من مذهبك أن الله تعالى قد وعظ قوما يعلم أنهم لا يتعظون ، ويأمرهم بالخير ويعلم أنهم لا يفعلون ، وأرسل إليهم ويعلم أنهم يكذبون ، فليس بمستنكر أن أعظ من لا يقبل الوعظ ولا يكون منه الخير ، قال جعفر بل أنت غافل لأنك لا تعلم كيف قولنا ، لأنا نقول أن الله أقدر من أمره بالخير عليه، فهل تقول فى الظلمة أنها تفعل الأقدار على الخير،فقال أو ليس من مذهبكم أن الكافر لا يقدر أن يؤمن والمؤمن لا يقدر أن يكفر ، قال جعفر ليس هذا من مذهبنا ومن قال بهذا من أمتنا فهو شر حالا منك عندنا فانقطع[3] .

---

(١) ابن المرتضى : المنية والأمل ص١٧ - ٢١ .

(٢) ابن المرتضى : المنية والأمل ص٢٦ - ٢٧ .

(٣) ابن المرتضى : المنية والأمل ص٣٢

ويلاحظ على ردود جعفر بن حرب على الثنوية ادعاؤه بأن الرد لا يستقيم إلا على رأى المعتزلة ، أما خصومهم من متكلمى أهل السنة فإن الرد لا يستقيم على رأيهم .

ولقد ذكر ابن المرتضى أن أبو على الجبائى كان ينظر فى شىء من النجوم ، وكان يقول أكثره يجرى مجرى الأمارات وله كتاب فى الرد على المنجمين[1] .

وهذا يشير إلى المناظرات التى كانت تجرى بين المعتزلة وبين أصحاب تلك الديانات المخالفة للإسلام ، بل لقد كانت بعض تلك المناظرات تتم فى حضرة الخلفاء ، فلقد جمع المأمون بين أبى الهذيل العلاف وبين زادان بخت الثنوى وجرت بينهما مناظرة[2] .

ونجد كذلك الخياط فى كتابه الانتصار يورد بعضا من ردود أوائل المعتزلة على الثنوية وغيرهم ، وأوقف القاضى عبد الجبار جزءًا من كتابه المغنى لشرح آراء الفرق غير الإسلامية وشبههم والرد عليها ، وغير ذلك من كتب المعتزلة ، وسوف نرى فى عرض ردود المتكلمين على أصحاب الديانات الشرقية نماذج من تلك الردود .

وأيضا اضطلع بمهمة الرد على هؤلاء المخالفين للإسلام الماتريدى وأتباعه ، ففى كتاب التوحيد وكتاب تأويلات أهل السنة للماتريدى ، وهما يعدان من أقدم المراجع فى عرض آراء هذه الفرق على اختلافها ، وردوده على هذه الآراء ومحاولة إثبات بطلانها ، فى قدم العالم وإنكار الصانع وإنكار الوحدانية وإنكار النبوات وإنكار المعاد مما سوف نعرض له فيما بعد .

أيضا لا يقل جهد الأشاعرة عن سابقيهم من المعتزلة ومعاصريهم من الماتريدية ، فى الرد على هؤلاء المخالفين ، فتقرأ فى كتب الأشاعرة ، ابتداء من كتب مؤسسها أبو الحسن الأشعرى ، وأتباعه من بعده ، ذكر هذه الآراء والرد عليها وإثبات بطلانها .

ونجد ردودًا من سائر المتكلمين من عير المعتزلة والماتريدية والأشاعرة فلقد ذكر ابن النديم ، أن هشام بن الحكم وهو من الشيعة له من الكتب التى رد فيها على

---

(١) ابن المرتضى : المنية والأمل ص٥٥ .

(٢) ابن المرتضى : المنية والأمل ص٤٢ .

هؤلاء المخالفين ، كتاب الدلالات على حدوث الأشياء ، كتاب الرد على الزنادقة ، كتاب الرد على أصحاب الاثنين ، كتاب الرد على أصحاب الطبائع[١] .

وأيضا من متكلمى المجبرة والحشوية من قام بتأليف كتب للرد على هؤلاء ، فيذكر ابن النديم الحسن بن موسى النوبختى ، فله كتاب للرد على أصحاب التناسخ ، وأيضا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله النجار ، له كتاب فى الرد على الملحدين ، وأيضا الكوشانى له كتاب فى خلق الأفلاك[٢] .

ومن الخوارج ذكر الهيثم له كتاب الرد على الملحدين[٣] .

ومن هذه النماذج يتبين أن المتكلمين من مختلف الاتجاهات قد قاوموا هذا الفكر الشرقى ، والفوا الكتب للرد على أصحابه وبيان تهافته وبطلانه ، ولم تكن مهمة المتكلمين قاصرة على مقاومة ذلك الفكر ، بل قاوموا أيضا الفرق المنتسبة إلى الإسلام ، والتى ذاع بينها ذلك الفكر ، وقالت بأفكار خارجة عن الإسلام .

ولقد كان هذا الفكر الشرقى القديم عاملا هاما فى اتساع هوة الخلاف بين المتكلمين على الرغم من معارضتهم جميعا لهذا الفكر ، إذ أصبح هذا الفكر تهمة يلصق بها كل فريق من المتكلمين غيره ، وذلك عن طريق إلزام كل فريق غيره بأقوال لم يقلها ، بحيث تكون هذه الإلزامات تؤدى إلى الشبه بين ما تؤدى إليه أقوالهم وبين هذا الفكر .

ونكتفى بمجرد الإشارة إلى هذه الإلزامات والاتهامات التى ألصقها كل فريق من المتكلمين إلى مخالفيه ، فمنها اتهام الماتريدى والأشاعرة للمعتزلة للقول بقدم العالم وفى هذا مخالفة للتوحيد وقل بوجود قدماء مع الله فى الأزل ، ومشابهة لقول الدهرية بقدم الطينة ، وهذا الإلزام نتيجة لقول المعتزلة بشيئية المعدوم[٤] .

وأيضا نجد البغدادى يتهم النظام من المعتزلة بأنه كان فى شبابه قد عاشر قوما من الثنوية ، وقوما من السمنية القائلين بتكافؤ الأدلة ، وخالط بعد كبره قوما من

(١) ابن النديم : الفهرست ص٢٤٩ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص٢٥١ - ٢٥٥ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٩ .

(٤) أنظر : رسالتنا للدكتوراه « أبو منصور الماتريدى وآراؤه الكلامية » ، حيث ناقشنا بالتفصيل هذا الاتهام .

ملاحدة الفلاسفة ، فأخذ من الثنوية قوله بأن فاعل العدل لا يقدر على فعل الجور والكذب ، وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات وغير ذلك من الاتهامات[١] .

وأيضا نجد الملطى يورد حديثا يجعل القائلين بالقدر وهم المعتزلة مثل القائلين بالاثنين ، وأحاديث أخرى تنذرهم بسوء العاقبة فى الآخرة[٢] .

وهذه الاتهامات وغيرها ليست صحيحة ، بل هى مجرد اتهامات فلقد جاهد المعتزلة ضد القائلين بقدم العالم ، ومناقشات أوائل المعتزلة لهم والتى استفاد منها خصومهم من الماتريدية والأشاعرة تفيض بها كتبهم ودفاعهم عن التنزيه والذى أدى بهم إلى نفى الصفات ، حتى لا يثبت لها القدم مع الله ، وتسميته أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، كل ذلك يشهد بأن المعتزلة أبعد ما يكون فى تصوراتهم القول بقدم العالم ، وأنه قد أسىء فهم موقفهم من شيئية المعدوم ، فضلا على أن أحدا منهم لم يصرح بقدم العالم ، والقائلون منهم بشيئية المعدوم من حيث هو معلوم أو يخبر عنه أو يذكر ، لم يقولوا بأن الشىء يعنى الوجود حتى يبعدوا أية مظنة بوجود المعدوم فى الأزل ، مما يؤدى إلى قدم الأشياء فى الأزل ، إنما كان ذلك من إلزامات خصومهم .

ويذكر الخياط أن قول المعتزلة بأن الله لا يفعل الظلم ليس مشابها لقول المنانية أو الديصانية وغيرهم من الثنوية ، بأن الله الخير (النور) لا يفعل الشر ، وذلك لأن الظلم لا يقع إلا من ذى حاجة حاملة على اعتقاده أو جاهل بقبحه وعاقبته ، وليس للمنانية أن تعتل بمثل تلك العلة ، وذلك لأنهم يزعمون أن النور يجتلب المنافع ويدفع المضار وتدخل عليه الآفات وتغلب عليه الظلمة حتى لا يعلم شيئا لغلبتها عليه ، فإذا كان ذلك كذلك فلا دليل لهم على الشر والظلم لا يجوز وقوعهما منه .

وذكر الخياط فى موضع آخر تفرقة لمعتزلة بين الشر الطبيعى الذى هو شر على سبيل المجاز وهو من فعل الله ، كالقحط والجدب وهلاك الزرع وبين الفساد الحقيقى وهو المعاصى ، لأنها الشر الحقيقى الموصل إلى عذاب الله وذلك من العباد[٣] .

وهذه نماذج من الإلزامات والاتهامات ، وهى تبين لنا كيف أن هذا الفكر الشرقى القديم ، كان له دورا واضحا فى اتساع هوة الخلاف بين المتكلمين ، وأخذ

---

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ص٣١٠ وما بعدها .

(٢) الملطى : التنبيه ص١٦٠ .

(٣) الخياط : الانتصار ص٤٢ - ٤٣ و ٨٥ .

يرمى به كل فريق غيره بتهمة الوقوع فيه ، وحقيقة هذه الاتهامات أنها باطلة ولا أساس لها وأنها مجرد إلزامات يلزم كل فريق خصمه بها ، ولقد كثرت هذه الإلزامات والاتهامات بين المتكلمين ، وأوردنا أمثلة لها مكتفين بمجرد الإشارة إليها ، لأن مناقشاتها بالتفصيل لا يتسع له هذا المجال ·

● **مظاهر الخلاف :**

إن الخلاف واضح بين الفكر الدينى الشرقى القديم وبين عقائد الإسلام ، وسوف نورد مظاهر هذا الخلاف معتدين على ما ذكره البغدادى من مسائل الخلاف بين عقائد أهل السنة ، وبين الفرق غير الإسلامية أو التى تنتسب إلى الإسلام وذاع بينها هذا الفكر ، ومن هذه الخلافات التى أوردها :

قول أهل السنة بالخبر المتواتر الذى يستحيل التواطؤ على وضعه ويوجب العلم الضرورى بصحة مخبره ، وبينما يقول السمنية بإنكار الخبر المتواتر ، وإنكار الخبر يعنى التشكيك فى أخبار الرسل ·

وقول أهل السنة بحدوث العالم ، وإجماعهم على أن العالم كل شىء هو غير الله عز وجل ، وعلى أن كل ما هو غير الله تعالى وغير صفاته الأزلية مخلوق مصنوع ، وعلى أن صانعه ليس بمخلوق ولا مصنوع ، ولا هو من جنس العالم ولا من جنس أى شىء من أجزاء العالم ، وأجمعوا على أن أجزاء العالم قسمان : جواهر وأعراض ··· وهذا خلاف من قال باختلاف الأجسام لاختلاف الطبائع ، وقول الثنوية أن الأجسام نوعان : نور وظلمة ، وأن الخير من النور ، والشر من الظلمة ، وأن فاعل الخير والصدق لا يفعل الشر والكذب ، وفاعل الشر والكذب لا يفعل الخير والصدق ·

ولقد قال أهل السنة أن صانع العالم قديم لم يزل موجودا ، على خلاف قول المجوس فى قولهم بصانعين أحدهما شيطان محدث ، وأيضا خلاف قول الغلاة من الروافض ، الذين قالوا فى على : إنه جوهر مخلوق محدث ، لكنه صار إلها صانعا بحلول روح الإله فيه ·

وأجمع أهل السنة على أن الله تعالى غنى عن خلقه ، لا يجتلب بخلقه إلى

نفسه نفعا ولا يدفع عن نفسه ضررا ، وهذا خلاف قول المجوس فى دعواهم أن الله إنما خلق الملائكة ليدفع بهم عن نفسه أذى الشيطان وأذى أعوانه .

وأجمع أهل السنة على أن صانع العالم واحد ، على خلاف قول الثنوية بصانعين قديمين ، أحدهما نور والآخر ظلمة ، وخلاف قول المجوس بصانعين ، أحدهما إله قديم اسمه عندهم يزدان ، والآخر شيطان رجيم اسمه أهرمن ، وخلاف قول المفوضة من غلاة الروافض فى أن الله تعالى فوض تدبير العالم إلى على ، فهو الخالق الثانى ، وخلاف قول الخابطية أتباع أحمد بن خابط ، أن الله تعالى فوض تدبير العالم إلى عيسى بن مريم ، وأنه هو الخالق الثانى .

ولقد قال أهل السنة بإثبات الرسل من الله تعالى إلى خلقه ، وذلك خلاف قول البراهمة المنكرين لهم .

وقال أهل السنة أن الأنبياء كثير ، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وأول الرسل أبو جميع البشر وهو آدم عليه السلام ، وآخرهم محمد ﷺ ، على خلاف قول المجوس فى دعواهم أبو جميع البشر كيومرث الملقب بكلشاه ، وخلاف قولهم : إن آخر الرسل زرادشت ، وخلاف قول من زعم من الخرمية أن الرسل تترى لا آخر لهم .

وقال أهل السنة بنبوة موسى فى زمانه ، خلاف قول منكريه من البراهمة ، والمانوية الذين أنكروه مع إقرار المانوية بعيسى عليه السلام ، وقال أهل السنة بتكفير كل متنبى و « أى مدعى للنبوة » ، سوء قبل الإسلام كزرادشت ويوراسف ومانى وديصان ومرقيون ومزدك أو بعده كمسيلمة وسجاح والأسود بن يزيد .

وهذه الفرق بأجمعها تخالف مبادىء الإسلام الخمسة ، وهى : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام ، ومن أسقط وجوب ركن من هذه الأركان الخمسة أو تأويلها على معنى موالاة قوم كما تأولت عليها المنصورية والجناحية من غلاة الروافض فهو كافر ، وعلى هذا فهذه الفرق خارجة عن دين الإسلام[1] .

ولقد دارت مناقشات ومجادلات بين المتكلمين وأصحاب الديانات الشرقية ،

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ص٣٢٣ إلى ٣٥٩ .

حاول فيها المتكلمون أن يردوا بسلاح العقل على حجج هؤلاء وأقوالهم وتفنيد أدلتهم وإثبات بطلانها ، ويمكننا أن نحصر مجالات هذه المناظرات فى بعض الموضوعات التى دار الجدل حولها ، وهى :

- (**أولاً**) القول بقدم العالم وإنكار وجود الله تعالى ·
- (**ثانيًا**) إنكار وحدانية الله تعالى والقول بالتجسيم والتشبيه ·
- (**ثالثًا**) إنكار النبوات ·
- (**رابعًا**) إنكار المعاد والقول بالتناسخ ·

* * *

obeikandl.com